

فاسينوكين

للقصصى الفرنسى أونوريه دى بلزاك
بقلم الأستاذ دريى خشبة

بملاحظة أهل هذا الحى - فوبورج -
ودرس أخلاقهم وطبائعهم . ولم أكن
أتأق في ملبسى بل كنت أبدو بينهم
في زى أهل الأعمال وسمتهم ؛ فكان ذلك
يعينني على الامتاز بهم ؛ والانسجام
كلنا عادوا أدراجهم بعد الفراغ من
العمل ، أو اجتمعوا لبعض شئونهم .

ومن هنا أصبحت قوة ملاحظتي لهم غريزة في
نفسى ، وملكة أنفذ بها إلى صميم أرواحهم ،
وأتغلغل بواسطتها في أدق شئونهم ، كما كان يتغلغل
دراويش ألف ليلة وليلة بكلمات سحرية وتعاويد
يرددونها في جوامع فرائسهم ودمائهم

وكنت كثيراً ما أقتفى أثر عامل عائد مع
زوجته إلى بيته بعد الحادية عشرة مساءً أو قبيل
منتصف الليل ، بعد خروجهما من الأبيجو كوميك
لأسلى نفسى بالضرب وراءهما من البوليفاردي بونت
أوشو إلى بوليفار بومارشيه

وكانوا يبدأون أحاديثهم عادة عما شاهدوا في
اللهي من التمثيل ، ثم يتدرجون من ذلك إلى أمورهم
الخاصة . ولم يكن الأمهات يبالين أن يجذب
صغارهن ليلاحقوهن ، وهن يكلمن أزواجهن ،
ويحسبن مصروفات اليوم التالى ... وهن ارتفع
شكواهن من غلاء أثمان البطاطس ، ومن طول
الشتاء وارتفاع أسعار الوقود ، والمطلوب للخباز
ومن إليه ... يتعاطون ذلك في حوار بورجوازي
ملى بالصياح ، يشف عن طبائعهم وطبائعهم ،
وغرائزهم المكبوتة وغرائزهم

وكنت أصنى إليهم فأحس كأننى أخدمهم ...
بل كنت أشعر كأنما أسألمهم على ظهري ، ونعالهم
المحصوفة تطلق في قدى ، وبهم يحلجل في صدري

حدث أننى كنت أسكن مرة في شارع صغير
يسمى شارع ليدجيسير ، متفرع من شارع
سانت أنطوان من ناحية النبع القريب من ميدان
الباستيل ، وينتهى عند شارع السيريزاي . وكنت
أقضى ليالى في غرفتي الموحشة فوق السطح مكباً
على كتبي مستغرقاً في مذاكراتى ؛ كما كنت أقضى
سحابة النهار في مكتبة أورليان القريبة من مسكنى
وكنت آخذ نفسى بحياة التشفى والزهد ، وهى
حياة لا يحصى منها لكل عامل مجد ، فكنت
أستكثر أن أخرج للنزهة المجردة في البوابقار
بوردون إذا ما صفا الجو واعتدل

ولم تكن قوة في العالم تغرينى بالانصراف عما
أخذت به نفسى من المطالعة والدرس ، إلا هذه
القوة العجيبة التى كانت تبتعث في ميلاً غريباً إلى
لون آخر من ألوان الدراسة مختلف أشد الاختلاف
عن دراساتى ... أما ما هو هذا فهو شفى العميق

* منزلة بزاك في الأدب الفرنسى كنزلة دكتور في الأدب
الانكليزي . وهو من أفند الكتاب على التصوير وتحليل
الجرمين وخلقاتهم ، وهو يقول في ذلك حتى يحسبه الفاري
من المنحطين ولا سيما حين يتناول الأدب المكشوف . وقد
يشعر الفاري بملل من طول مقدماته لكنه حين يخلص إلى
القصة يتنفس الصعداء . وأقصوصة فاسينوكين أحسن
ما تمثّل به أدب بزاك ، ولهذا السبب اخترناها برغم ما في
مقدمتها من أغار . ولد بزاك سنة ١٧٩٩ ومات سنة ١٨٥٠

أحد أن ينفذ إلى أغواره ليطلع على العجب العاجب
من مضاحكه ومآسبه ثمة ! !

ما أشد جهلنا بقصص الحياة في هذا الحى ،
تلك القصص التي لا تصلنا روائعها إلا بطريق
الصدفة ، وبلا اتفاق !

على أنني لست أدري كيف احتفظت بقصتي
التالية كل هذا الزمان الطويل دون أن أنشرها على
الناس ! ربما كان هذا لكونها من الصفحات
المجيبة التي تظل مطوية في ذاكرة الراء حتى تخرج
منها بطريق الصدفة ، كما تخرج (التمر) الراجعة من
صندوق النسيب ... وكما في الذاكرة من أمثال تلك
القصة ، وستظل غخبئة تحت مثلها ، حتى يأتي دورها
فلا يكون بد من خروجها منها كما خرجت

كنت أستاذة امرأة مسكينة كانت تحضر
إلى صبيحة كل يوم لتنهض بشئون غرفتي ، فتصلح
سريرى وتمسح خذائى ، وتنفض ملابسى ، ثم تعد
فطورى ؛ وتذهب بعد ذلك إلى مصنع قريب كانت
تعمل به في إدارة آلة لقاء عشرة صليديات في اليوم
في حين كنت أدفع أنا لها أربعة فرنكات شهرياً .
وكان لها زوج فقير يصنع صناديق الدمام فيحصل
منها على أربعة فرنكات يومياً ، وذلك هو الذى
اضطر زوجته إلى العمل ليعمولا نفسيهما وأبناءهما
الثلاثة ويميشا عيشة بين الرخاء وبين الكفاف

ومع ما كانا فيه من ذلك الضيق فأنى لم أر
مثلهما أمانة وعفاف يد . وما أذكره لها بخير هو
وقاؤهما وحهما لى . ففي الخمس السنوات التي تركت
فيهن مسكنى ، كانت الأم فيلان تحضر إلى كل
عام في يوم ميلادى حاملة باقة من الورد ، وبضع
برتقالات ، تحية لى في هذا العيد ... وكنت أعلم
أنها لم تكن تدخر فلساً لهذا الغرض ، ولذا كنت

(٣)

وشكواهم تتردد في قلبى ، وأرواحهم تسرى في
كما تنساب فيهم روحى

وعلى هذا النمط كانت أحاسيسنا كأحلام اليقظة ،
تذوب معاً كما تذوب الشمعة تحت اللهب ، أسفاً على
ما يصيب الانسان من ظلم أخيه الانسان ... وهكذا
كنت أفرج عن نفسى بالانطلاق من دراساتى
الخاصة إلى هذه الرياضة الذهنية التي كانت موهبة
عظيمة منت بها السماء على ، فأصبحت لى بمثابة حاسة
من البصر الروحانى ، كهذه الحاسة التي أرى بها
الملحوسات عن طريق عيني

على أنني حشرت في تحليل هذه النعمة الجديدة
فلم أدر ما باعها ، ولا القوة الغامضة التي تصدر عنها ؛
وكان أكبر ما يخيفنى منها أن تكون إحدى هذه
القوى الكامنة التي تنتهى إلى الجنون حين يُساء
تصرفها . ولم أحاول استكناه هذه القوة ، وكان
بحسبى أننى أمتلكها ، وأننى أدللها لما ربى ... وكفى ؟
ومما يجدر بى أن أشير إليه هو أننى كنت قد
بدأت في تلك الأيام تحليل الكتلة البشرية الهائلة
إلى عناصرها الأساسية ، وتقدير ما في هذه العناصر
من خير ومن شر . وكانت هذه الضاحية التي
اخترت مسكنى فيها أحسن حقل لاستنبات تجارى
واستنباط قوانينى ، فقد كان يعيش فيها الأبطال
والمخترعون والعلماء الأعلام ، جنباً إلى جنب مع
الأوشاب والرعاع والهمج ؛ وكانت الفضيلة في أسمى
مدارجها ، تختلط بالرذيلة في أحط دركاتها ؛ وكان
الفقر يكتم أنفاس الجميع ، والحاجة تهيم على
الأفئدة والكرامات ، والخرمى طبيب السكل ،
والنفوس النائرة المشبوبة تتبدد في جحيم من الألم والموز
لله كم ألف مأساة وألف فجعة كانت تمثل
صامتة في ظلمات هذا البلد البائس المكتئب ! والله
كم ألف حسناء وألف قلب مضطرب لا يستطيع

ومخزن الخمر الشاحب الأرجواني ... ورائحة الخمر
التي تفوح منه ... وصرخات الفرح والمرح ...
وأن تتخيل أنك في هذه القاعة وسط القوم ، بين
العمال المساكين والفقيرات البائسات ، تشرّكهم
في عرسهم المتواضع

أما فرقة الموسيقى فكانت تتكون من لاعب على
كمان ، وعازف في ناي ، ونافخ في مزمار ، وكانوا
جميعاً من أعضاء ملجأ العميان القريب . وقد دفعوا
لهم سبعة فرنكات أجراً كاملاً عن هذه الليلة البتيسة ؛
وبالطبع لم يكن أحد ينتظر أن يسمع بهذا الأجر
الطفيف إلى يتهوقن أو روسينى ... ولذلك كان
عرسهم (حينئذ اتفق) لأن أحداً من الموجودين
بالغرفة لم يكن يعنى باحصاء الفلئات الموسيقية ،
وأخطاء النوتة ، وسائر ألوان النشاز التي كان يقع
فيها عمياننا المحترمون ... أما أنا ... فلي الله ! لقد
كانت موسيقاهم وقرأ في أذني ، وكابوساً على قلبي ،
وقد تلفت من الضيق فوق نظري على الثالث الأعمى
وقد رثيت لحالمهم ففضضت الطرف عن ملابسهم
المرقعة ، وثيابهم المرفوة ، وقد كان من العسير علينا
أن نتبين سخيمهم لأنهم وقفوا يعزفون في نافذة
عالية ، فكان الضوء يسقط على أقميتهم تبعاً لذلك
وكانت أوجهم في الظلام ، ولم أدر ما ذا دفعني
نحوهم ، إلا أن تكون القوة الكامنة التي حدثتك
عنها في المقدمة الطويلة الماضية . لأنني وجدتني
أنغلغل بروحي في كيان الأعمى المجوز الذي كان
يعزف على الناي . وكان الموسيقيان الآخران في مسرح
دائم وسرور مستمر . بمكس صاحب الناي الذي
ما أحسب مخيلة فنان أو عقل فيلسوف قد اتفق لها
مثل خلقه أو محياه ... وتستطيع أنت أن تتخيله
إذا رسمت في ذا كرتك طيفاً لدائتي ، ودلّيت على
على وجنتيه غابة كثيفة كثة من الشجر الأشيب

أضطر — حين تأني بالورد وبالترتقال — أن أقترض
ورقة مالية بعشرة فرنكات لأدسها في يدها مساعدة
لها ، مدفوعاً بعامل الحاجة الذي شربنا معاً بكأسه
إذا عرفت ذلك من أمر هذه المرأة البائسة ،
فاعلم أنا بك الله أنها جاءت إلى ذات يوم لزوجني
في أن أشرفها بالذهاب إلي بيتها للمشاركة في عرس
أختها ، وهو عرس تعرف أنت مما قدمت لك مقداره
من الرونق وضيق الاستعداد

وقد وعدتها أن أذهب ، وكان أول ما فكرت
فيه هو المبلغ الذي أستطيع أن أعينها به بعد أن
أندمج في العرس المتواضع كواحد من أهله

وأقيم العرس في الطابق الأول من بيت قديم
فوق مخزن للخمر بشارع شارنتون ، في غرفة
كبيرة أضيئت ببضعة مصابيح زيتية ذات مرايا من
الصفائح ؛ وصفت فيها مقاعد من الخشب مجلدة
بسواد كثيب هو سواد القدر من غير شك ، وقد
اشترك في العرس ثمانون مدعوّاً لبسوا أحسن
ما يلبس في يوم الأحد ، وحملوا أغصاناً من الزهر
اليانع ، ثم أخذوا من الرقص بنصيب مبالغ فيه ،
ومن المرح بكأس دهاق ، حتى لكأنما كانت الدنيا
موشكة أن تنتهي لميعاد

هذا ، وقد جمل الرجال وأزواجهن يتبادلون
تحيات خبيثات ، وبتراشقون بأهات فاضحات ...
وكذلك كان يفعل الفلمان والشباب والكواعب
الأتراب ... وكان يبدو على وجوه الجميع أمارات
عجيبة من نشوة الفرح لا يسمو إليها الوصف ،
ولا يستطيع تصويرها القلم

أفرايت إذن إلى هذه المقدمة الطويلة المملة ؟
إنها لا تمت إلي قصتي بسبب ، فدعها جانباً ، ولا
تذكر منها إلا أترأ طفيفاً يكون كالهواء الذي تنفّس
فيه القصه ... فقط ... يجمل أن تذكر النظر ...

ذلك الماضي المؤلم كان ما يزال مكوِّماً ثمت آيةً على الشقاء القديم... فمن هذه الجذوات الحامدة هذا القبس الذي بدأ يتضرم به قلبي ، وينساب بالحميم والمهل في عروقي !

أما المازفان الآخرا ففقد كانا يهشان لاخمر ، وكانا كلما انتهت وصلة أفرغنا من الزجاج في كأسيهما فإذا شربا ما هو حسبهما ، ملا لصاحبهما شوباً فاحتساء في تأدب وشكر لها بإيماءة من رأسه... وكانت حركاتهم في كل ذلك مُحْكَمَة مضبوطة حتى لتحسب أنهم غير عريان... والعجيب من أمرهم أنني حينما دنوت منهم أحسوا بي ، بل وثقوا أن بالقرب منهم رجلا ليس من العمال الذين تكتظ بهم الغرفة الفسيحة ، ولذا فقد فاءوا إلى وقار مصطنع ، وتعملوا الهدوء ونبل السم

وقلت أخاطب صاحب الناي :

— من أي أطراف الأرض سمعت بك قدامك يا صديقي يا صاحب الناي ؟

فقال في لهجة إيطالية : « من البندقية ! »

فقلت : « وهل ولدت هكذا أعمى ، أم ابتليت بهذا عن عَرَض ؟ »

فقال : بل ابتليت به قريباً ... نقطة لعينة ذهبت بنورها !

فقلت : إن البندقية مدينة جميلة ، ويا طالبا حلت بالسفر إليها !

وقد هاج ذكر البندقية شجون الرجل ، فقد رقصت أساريه وبدأ عليه التأثر ، وقال :

لو أنني ذهبت إليها معك لوفرت عليك كثيراً من وقتك !

وهنا تدخل صاحب السكبان فقال : « لا تكلم الدوج عن البندقية ، وإلا فاك تخرجه عن طوره فيلهم كل هذه القناني ... » وقال صاحب الزمار :

البراق ، ثم موَّهت وجهه المبوس الصارم بما يتبع المعنى من مرارة وحزن ولأواء ... لقد كانت عيناه البيضاء تتأججان بلهيب خفي ، تشغله رغبة نائرة فائرة ، فيتمنضن جبينه ذو الخطوط والشقوق والأسارير ويبدو كأنه حائط أثرى لعبت فوق ملاطه تصاريف الزمان

وكان الرجل ينفخ في نايه في غير مبالاة وبدون اكتراث ، غير معنى بأحد ممن سمى إلى العرس ؛ وقد كانت أصابعه تتبعثر فوق مفاتيح الناي في ارتخاء وحيثما اتفق ... ولم يكن بأبه بالوان النشاز التي يتحدثها بعدم مبالاة ... وكأنه كان في واد والراقصون والراقصات في واد ... فلم يكن عزفه يؤثر في حركاتهم أو حركاتهن ... وقد استنبطت أنه إيطالي الأرومة ، وكانت المرارة التي يُكْتَسِمُها في أعماقه تجعل منه هوميروساً عجوزاً ، يكبت في صميمه أوديسة قد مسحها يد العفاء وهالت فوقها تراب النسيان ... ومع شقائه الذي ليس كمثل شقاء فقد كان عظيماً في مظهره ، وكان جور الزمان يزيد في منظره روعة أي روعة !

إن من المواطن القوية ما يدفع الإنسان نحو الخير أو نحو الشر ، فإذا كانت الأولى خلقت منه بطلاً مغواراً ، وإذا كانت الثانية جعلت منه مجرماً أثمياً ... وقد تضافرت عواطف الشر كلها فنحتت وجه هذا الأعمى الايطالي الصارم الجبار !

إنك لو رأيته لهالك أن ترى بداوات النعمة تنبعث كالشهب المحترقة من فجوات عينيه ، أروع مما ترى إلى عصابة من قطاع الطرق شاهرة خناجرها في فتحة كهف سحيق ، أو كما تنظر إلى سبع جائع يقضم قضبان قفصه

لقد خبت نيران اليأس في صدره ، وبردت الحلم المنقذة على جبينه ، ولكن أترأ من دخان

فقال : في أيام الشدة !

وكان زميله صاحب الكمان يعرض عليه كوباً من الخمر فنجاه عنه ... لأن الحديث المؤلم عن ذاك الماضي الملىء أفقده شهيته إلى الشراب مسكين هذا النبيل البندقي الذي ابتلاه الله بي ليرده فجأة إلى ذكريات ماضيه البعيد ، حين الشباب غض والصبا في إبانة ...

فينيس ! هذه البندقية ! عرووس الأدرياتيك ! لقد شهدت خرائب وآثاراً في وجه هذا البندقي الذي كان كله خرائب وآثاراً ، ولقد رأيتني أرتد إلى ما قبل نصف قرن فأمشي جيئةً وذهاباً في المدينة الجميلة التي يعشقها ساكنوها ... وهأنذا أنطلق من الريالتو إلى الجراندي كنال ، ومن الريشادجلي شياقوني إلى الليدو ، ثم أرتد إلى السانت ماركس ... تلك الكثدرائية التي لا تطاولها كثدرائية في حسن البناء وروعة التركيب ... وهأنذا أردد الطرف في نوافذ الكلسا دورو ذات النقوش والتصاوير ... وهامى ذى القصور الباذخات وعجائب النباتات التي تنطبع في الدائرة فتظل ألوانها إلى الأبد في صفحاتها كالأحلام العظيمة التي لا تقوى الحقائق المجردة على محوها

ثم هأنذا أرى تيار الحياة الجارف يرتد فيكتسح بعكسيه وأحزانه هذا النبيل الذي يتطاير كالشرر في تضاعيف الزمن !

لا جرم أن أفكاري هذه كانت تضطرب في نفس صاحبي البندقي الأعشى ... بل هي كانت تخطر فيه أسرع ما كانت تخطر في بالي ، لأن فقد حاسة البصر يساعد العميان على حضور البديهة وسرعة التفكير ، وتركيزه تركيزاً عجيباً

ثم ترك فاسينو آلتيه وموسيقاه ، ونزل عن مجلسه في النافذة ، وقال : « هلم نخرج من هنا ! » وقد سرت كلماته في أذني سريان الكهرباء ، فأعطيته

« هلم فلنعرّف الآن يا دادى كنارد ! » وانطلق الثلاثة يمزفون للرقصة الرباعية ، لكن أخى صاحب الناي لم ين يفكر في البندقية بدليل ما بدا على جبينه المجدد من الأشرار وما شاع في وجهه الهائل من الجذل

وقلت له : « وما عمرك يا صاحبي ؟ »

فقال : « ثنتان وثمانون ! »

فقلت : ومنذ كم سنة عميت ؟

فأجاب : ها ... منذ خمسين ! تقريباً !

وكان يرسل جوابه في حسرة وتلدد عرفت منهما أنه كان يأسف لشيء عمن أعز عليه من عينيه ضاع من يديه

وقلت له : إذن فلم يدعوك دوجاً !

فأفتر باسمًا وقال : « أوه ! إنها مزحة ! ومع ذلك فأنا نبيل بندقي ، ولو أردت لكنت دوجاً أعظم من أي دوج آخر »

وقلت له : وما اسمك أيها الأخ ؟

فقال : هنا - في باريس - أعرف باسم بير كانيه وهو اسم أردت به تسمية المسجل . أما في إيطاليا فاسمى ماركو فاسينو كين أمير فارسيه

فقلت متمججاً : ماذا ؟ أنت حفيد الزعيم العظيم فاسينو كين الذي انتزع أراضيه دوقات ميلان ، بعد إذ استولى عليها بحد السيوف ؟!

فصاح متأثراً : « مرحى ! لقد تعرضت حياة ولده للخطر في ظل الفيسكونتي ففر إلى البندقية وسجل اسمه في الكتاب الذهبي . والآل لا كين ولا الكتاب الذهبي في هذا الوجود ! » قال ذلك وبدت عليه علامان الانفعال والتأثر ، وكانت حماسة الوطنية تهيج في أنفاسه ، ثم بذهب بها الضيق من الحياة وقلت أسأله : ولكنك إذا كنت في المبدأ نبيلاً بندقياً فلا بد أنك كنت مثرياً واسع الثراء ، فقيم إذن بددت ثروتك ؟

ملكيت لبي خريدة من صبايا أمرة قنندرام ، جميلة الخلق ، فتانة الجسم ، ساحرة اللغات ، متزوجة من أحد رجال مجلس الشيوخ الذي كان هو الآخر يعبد عبادته ... وكنت ألقى في سبيل غرامي هذا من أهوال لا تصبر على بعضها الجبال ... وكم عرضت نفسي للقتل المحقق من أجل قبلة سحرية أطعمها على شفقتها الرقيقتين ... فبينما كنا نتساق كؤوس الحب الصافي كملكين طاهرين إذا زوجها يفجأنا ، وإذا به ينقض على سلاحه يود لو أغمد في صدري فيسكت به أنفاسي ؛ وأتيت بحركة سريعة جعلته يخطئ الأصابة ، ولم يكن ممي سلاح مثله ، فتمكنت لحسن الحظ من عنقه ، وقبضت عليه بكنتا يدي ثم ضغطت ضغطة هائلة ، فسقط البائس ميتاً ، في سبيل الدفاع عن عرضه ... وشرفه ... ثم أغربت بيانكا - وهذا هو اسمي حبيبتى - على الهرب ممي ، لكنها رفضت - ولم يكن هذا جديداً من حال النساء ... فذهبت على وجهي في الأرض وحدى ... وصدر الحكم على غيائياً بالشنق واستصفاء أملاكى ، بيد أنني كنت أعرف هذا المال من قبل ، فحملت ممي جواهرى وأموالى ، وخمس صور تيتيانيات - بندقيات - انتزعها من إطاراتها ثم لدت بالفرار إلى ميلان ، ولا أنيس لى ، ولا من حبيب بواسينى إلا ... ذهبي ... ذهبي الكثير الذى أحبيته قبل أن أحب أحداً آخر ... وللذهب ممي قصة تبدأ من قبل أن أنشق نفساً واحداً من هواء هذه الدنيا ، فقد قبل إن والدتى وحت عليه وهى حامل بى ، وقد أترذلك في جنينها ، فلما نزل إلى الدنيا لم يكن يعشق شيئاً عشقه للذهب ... فلما شبيت كنت أترين بالجواهر واللاالى الغالية ، وأحمل ممي كيساً يحوى مائتين أو ثلثمائة من الدوقيات أبددها بغير حساب «

وحينما قال ذلك ضرب يده في جيبه ثم أخرجها

ذراعى وانطلقنا من غرفة العرس ، حتى إذا كنا في الشارع التفت نحوى في انكسار وقال لى : « ألا تصيدنى إلى البندقية ؟ ألا تأخذنى معك إليها ؟ ألا تتنازل فتكون قائدى ؟ ألا ترد إلى ثقى وإيمانى ؟ إنك إن فعلت فإنك تصبح أغنى من عشرة بيوتات مالية من بيوتات أمستردام أو بيوتات لندن . إنك تصبح أغنى من روتشيلد ! وقصاراى أنك تحصل على أضعاف هذه الثروات الخرافية التى ربما تكون قد قرأت عنها فى ألف ليلة ! »

لقد كانت بداوات الجنون تلوح فى مخايل الرجل ، ولكن حرارة الإيمان التى كانت تفيض من منطقته جعلتني أطيعه ، بل جعلتني ألقى إليه بزماي - أنا البصير ! - فذهب يدلف بي نحو ميدان الباستيل فى وعى عجيب ، حتى إذا كان عند بقعة موحشة دانية من النهر ، عند ملتقى ترعة سانت مارتن بالسين ... وقف قليلاً ، ثم جلس فوق صخرة ثمة ، وجلست أنا تلقاءه ... وهنا ... كان منظره رائماً وقوراً ، وكان شعره الأشيب يتلألأ فى ضوء القمر كسلوك من فضة ! وكان كل شيء ساكناً ، ولم نكده نسمع إلا ضجيج الحركة الدائبة فى ظلام البعد ... وكان النسيم الليل الليلي يزيد فى سحر المكان ، وبضفى إليه أستار الخيال

وبدأت الحديث فقلت له : « إنك تتحدث عن الملايين إلى فتى يافع ابن عشرين ؛ أخسبت أنه يهاب الردى فلا يفتحده للحصول عليها ؟ ولكن ... ليت شمري ، ألم تكن تهزأ لى ؟ »

فأجابني فى اهتمام : « ألا لاطلمت على شمس غد إذا كان حرف واحد مما سأقوله لك غير صحيح ... حينما كنت فى سن العشرين كما أنت الآن غض الأهاب فينان الشباب ، كنت نبيلاً بمولدي ، غنياً ضخماً الثراء ... ثم ... نبض قلبي بالحب ، وجرفني تيار الغرام ، وكان ذلك سنة ١٧٦٠ ، حين

يقولون إن الجروح تندمل في الشباب أسرع مما تندمل في غير هذه السن
« وعرفت أنني لا بد مشنوق بعد حين ، أو فاقد رأسي . وكان القبو الذي حبست فيه قريباً من البحر كما وهمت ، فعولت على الهرب بنقب الحائط والفرار برقبتي وروحي جميعاً

« وكان الحارس كلما فتح باب القبو دخل بصيص من النور كان يكشف على ضالته جدران سجنى ، فرأيت مكتوباً على كل منها : (ناحية القصر) و (ناحية التربة) و (ناحية الأقبية) . ثم لمحت رسماً على هذا الجدار الأخير لم أهتم كثيراً به ، وعرفت بعد أنه صورة للقصر الدوقي . وقد أثار في تلهفي إلى النجاة ذكاءً حاداً لم أعهده في من قبل . ولذا جعلت أتمس الحائط بأصابعي وأحس ما عليه من النقوش ، وكان الظلام دامساً شديداً الحلك . واستطعت آخر الأمر أن أنهجى كلمات عربية عرفت منها أن حافرها يخبر من يجيء بعده أنه قد قلقل حجرين كبيرين في أسفل أساس البناء ، ثم أفرغ أحد عشر قدماً في الأرض مما يلي الحجرين . وأنه كان يستعين على إخفاء آثار الحفر بنثر التراب المتخلف فوق أرض القبو حتى لا يكشفه الحارس . وكان هذا احتياطاً لا داعي له من السجن البائس ، فقد كانت أرض القبو عميقة بعدة درجات من بابه بحيث لم يكن يُعنى السجنانون بتفتيشها ، ولا باللقاء نظرة مجردة عليها ، ولم يكن منظرها في هذا الظلام الدامس يشير شكوك من ينظر إليها

وا أسفاه !! لقد جهد السجين كل هذا الجهد لينجو ، لكن جهده لم ينفعه لأنه قتل ، ومما نقش في حائط القبو عرفت أنه كان عربياً أو من أصل عربي ، فلو لا إلماي ببضعة لغات شرقية لما استطعت أن أصل ما انقطع من عمله الشاق ، لأنجو أنا بنفسى ... فشكراً لهذا الدير الشرقي في أزمير . حيث تعلمت

مملوءة بحفنة من الذهب ووصل حديثه فقال :
« الذهب ! آه من هذا الذهب الذى أصبح دعامته الحياة في هذا العصر كما كان في كل عصر ... إني أستطيع أن أحسه على بعد وإن كنت أعمى بإصباح ! ومن غريب ما يحدث لى أنني أقف بالبدية أمام دكان الجواهرى أشبع شيطاني السكمان بمواجهة اللآلى وإن كنت لا أرى منهن شيئاً ... وهكذا كان هذا الشيطان رائدى إلى الخراب ، لأنه قادنى إلى القمار لألعب بالذهب ، فما زال يخدعنى حتى حطمتنى ، وفقدت جميع ثروتى ... ثم عاودنى الشوق الملح للقاء بيانكا ... فاسترقت الخطي إلى البندقية ، ومازلت أطوى إليها السبيل مستخفياً حتى لقيتها ... وخبأتني الحبيبة عندها ستة أشهر مرت كالحلم في أحسن ما يكون بين العشاق ... ووقر في روعي أن أنهى الحياة على هذا النسق السهل الجميل المواتى ، لولا أن شعر بحالها البروفيدوتور ، فبت عيونه وأرصاده ، حتى فاجأنا يوماً في فراشه الدافئ ، وهي غارة في حضنى السعيد ، فكانت بيننا معركة هائلة ، لأنها من أجل الحياة ! على أنني لم أقتل الرجل ، بل جرحته جرحاً بالفا ... فلما صاح بالخدم أقبلوا مسرعين ، وهنا اشتدت المعركة ، وساعدتني بيانكا في الإجهاد على الرجل ... بيانكا التي رفضت من قبل أن تهرب ممي ... ها هي ذى تقف إلى جانبي لتناضل عني ، ولتلتقي عدة طعنات من أحلى ، وتتمنى أن تموت ممي في تلك المعركة الحامية ... ولما ضاق الخدم بى ، ألغوا على عباءة كبيرة ولفوني بالقوة ثم حملوني إلى قارب — جوندولا — وأمرعوا بى إلى سجون البولزى ، حيث قذفوا بى في إحدى (زنازينه) بعد أن احتفظت بقبضة سيفي المكسور وقطعة من صفحته ، احتفظت بهما ، وصممت على حمايتهما ولو بروحى ، لعلنى أنهما أنفع لى يوماً من الأيام — ولم تكن جروحي بذات خطر ، والناس

وبعد أن اتخذنا كل الاحتياطات الواجبة في مثل هذا التديرو دعوت صاحبي فهبطنا إلى كنز الجمهورية الثمين ! « يا لها من ليلة ! لقد وقف السجنان مسبوهاً أمام زنايل اللآلي وصناديق الذهب ، ثم انطلق فجأة يرقص ويفنى ، وينتقل كالفراسة من غرفة التحف الفضية إلى قبو الذهب ، فما شككت أن المسكين قد أوشك أن يجن ... وقد خفت أن تغفل الفرصة من أيدينا بهذا الغرق وذلك الطيش ، فلم أركه يستمر في ضحك ورقصه وجنونه إلا ربنا أملاً جيوبى وكل فجوات ملابسى بخير ما رأيت ثمة من لآلى وجواهر وماسات ، ثم صحت به أن يتزود ، فالكفا بقذف في جيوبه هو الآخر ما اشتبهت له نفسه ثم أمرته أن يعلأ كياساً كانت ملقاة في زاوية وأفعمها ذهباً ... وحذرت أن يمس اللآلى لأنها تنم عن حاملها فيضبط وينال جزاءه ، فعزف عنها ، في حين كنت أنا أغافله وأنتقى منها لنفسى ما أشاء فأدسه في ثيابي بين البطانة والظاهرة ، ورغم ما كان يستولى علينا من جشع فأنلم نحمل من الذهب إلا ما قيمته ألفا جنيهه إذا ما وزن ، وقد رشونا الحارس الواقف كالغريت عند البوابة بكيس فيه وزنة بمشرة جنينها ، أما الملاحون فقد أوهنهم أنهم إنما يخدمون الجمهورية بمساعدتنا ، على ذلك أبحرنا حينما تنفس الصبح أو كاد

وحينما كنا بآمن في عرض البحر ، عاودتني أشباح الذهب واللآلى . واضطربت في ذهني صور الكنز العظيم الذى خلفناه وراءنا ، وبدأت أذكر ذكريات الملايين التى كانت منذ ساعة في قبضتنا ، فقدرت قيمة الفضة بثلاثين مليوناً ، والذهب بمشرين مليوناً ، واللآلى والماسات بأضعاف ذلك ... وهنا ... شعرت بحمى الذهب تسيطر على مشاعرى وتتسلط على وجداني ، وتسرى في نخاعى !

ثم رسونا إلى أزمير ، وركبنا البحر ثانية إلى فرنسا ، وكم شكرت لله وصلت حينما ركبت في

هذه اللغة الكريمة التى بها أفلت من سجنى ! لقد ذكر المسكين في نقشه أن الحكومة البندقية قد قبضت عليه واستصفت أمواله ثم حكمت عليه بالإعدام ... فيالله ما أشبه الجدود العواثر !

« ووصلت ما انقطع من عمل الرجل ، ولبثت شهراً كاملاً أحفر بقبضة سبى الميزر والقطعة التى بقيت من صفحته ، وكنت أنسرق في السرداب فوق بطنى وصدرى ، وأعمل أظافرى في التراب .. وكلما ذكرت دنو الموعد الذى تبقى لى لأمثل أمام قضائى ، وأن ذلك سيكون بعد يومين اثنين ضاعفت مجهودى لدرجة الاستئانه حتى أسعفى الحظ ، وأدركتنى رحمة السماء ، فرأيتنى أصل إلى غاية لم أكن أحلم بها ... ! « وهنا .. يلعب الذهب دوره من جديد يا صاحبي الميزر ! الذهب واللآلى ... ثروة البندقية كلها .. ذهب ... لآلى ... ماس ... كل هذا يا صديقى خطف بصرى وأذهل شيطانى

ولم يكن يحجزنى عن هذا الكنز إلا عارض من الخشب كان لابد أن أزيله لأصل إلى هذه الثروة الطائلة ... نخلت ملابسى وعملت عارياً بكل قواى حتى أزحته قليلاً ... ثم تعبت فجلست أستجم ، وسمعت باب الكنز يفتح فجأة ، فنظرت فإذا دوج البندقية نفسه يدخل ويدخل وراءه عشرة من رجاله الأقوياء ، فينظرون إلى أكوام الذهب وزنايل اللآلى ، ففهمت من حديثهم أن ههنا نخبة الجمهورية ثروتها العامة وغنائمها من الغزو والحروب وفكرت وفكرت ... فهدأت التفكير إلى ضرورة إشراك السجنان معى في حمل ما نستطيع جملة من هذا الكنز ، والحرب إلى أقصى آفاق الأرض ... ولم يتردد المسكين في قبول اقتراحى ، بل أقدم عليه بقلب أشجع ألف مرة من قلبى ... واتصلنا بحبيبتى بيانكا فقامت من جانبها بمساعدة هائلة ، وأعدت هى والسجان قوارب النجاة ،

اللعينة بمد أن ابترت آخر دائق ممي ! ومع ذلك فلم أجسر أن أحتج بكلمة ، لأنها وقفت على سرى ، ولأنها إذا باحت به ، فقد عدت إلى عدالة مملكتي لتقتص مني قصاصاً مضاعفاً ... وذلك الذي أخافني فلم أقصد إلى أحد من معارفى لأستعده يد المساعدة ولم تتركنى الشيطانة لشأني بل بثت على الميون والأرصاء الذين ضقت بهم ذرعاً ، فأخذت في مقاومتهم ، لكنهم اتخذوا تلك المقاومة حجة على اختلال قواى العقلية ، فتقدمت المرأة المخاطرة إلى مستشفى المجاذيب (جيل بلاس) تطلب زجى فيه ، فنجح مسماها ، وحملت عليه ضيفاً غير كريم حيث أقمت بين مجانينه عامين كاملين ...

— وكأنا ثارت في قلبها الشفقة من أجلى فأخرجتنى من هذا البيارستان وزجت بى فى ملجأ للعميان ... أواه ! لقد عجزت أشنع العجز عن قتلها ! بل عجزت إطلاقاً عن رؤيتها ، وكنت على شراء سلاح ينفعنى أعجز منى فى الحالين !

« ولوقد كلمت سيجانى بنديروكارى قبل أن أتركه فى أزميز ، لعرفت منه موضع القبو الذى كنت مسجوناً فيه ... إذن لعدت مرة ثانية إلى الكنز ، ولا نهزت الحقيبة التى غزا فيها نابليون البندقية ومحاهما من الوجود .. وإذن .. لعدت غنياً من جديد ! » هل سمعت يا صاح ! إننى برغم هذا المعنى الذى

طمس عيني مستعد للذهاب معك إلى البندقية ... وكلى ثقة أننا إذا ذهبنا ، فلا بد أن أعرف مكان الكنز ... إني ما زلت أرى الذهب برغم عمى ؛ إني لم أفقد حاسة النظر إلى الذهب .. إنها حاسة سادسة فى طبيعتى ؛ إني أستطيع أن أرى ذهب البندقية ولو كان مطموراً تحت الماء ... لقد دفن خبر الكنز الثمين مع جثمان فنندرامين ، أخى بيانكا ... هذا النبيل الذى أنبأته به ليجنبنى خصومات العشرة (١)

« اسمع يا صاح ! لقد كتبت بخصوص هذا

السفينة الفرنسية لأنى أصبحت بمأمن من كل عين ولأنى تخلصت من شريكى المحترم فى الجريمة ... ولم أعد أفكر فى العواقب المحتملة لهذه الفعلة الشنعاء ، بل لم أكاف نفسى قبل أن نفرق بمكالة شريكى عن هذا الجرم ، لأنى كنت ألحظ أنه يكاد يجن من الفرح بما أفاءت المراقبة عليه ... فانظر كيف اقتصت المقادير منى وقد يشدهك أن أذكر لك أننى ما عرفت شيئاً من هدوء البال حتى بمت ثلثي ما حملت من اللآلى والماس فى لندن وفى أمستردام ، وإلا حينما تخلصت من التبر الذى مئ بأن استبدلته بكل أحرر نان وقد لبثت مستخفياً فى مدريد ما يقرب من خمس سنوات ثم رحلت إلى باريس بعد ذلك تحت اسم اسباني مستعار ، حيث عشت عيشة كلها سعة وبلهنية

وفى هذا الجو الفردوسى من السعادة ، وفى ذلك العباب الزاخر من اللذة التى تجلبها ثروة ستة ملايين من الجنيهات ، قضت المقادير أن تبلونى بالمعى ! وقد عللوا الماهة التى نزلت بعينى من إقامتى فى مكان موحش — الزنزانة ! — بيد أننى عللته بما هو أدنى من ذلك إلى الحق ... وبلاه ! لقد فقدت بصرى من طول ما بكيت على بيانكا ... فقد ماتت !

ولكن لا ! ... ليس ذلك أيضاً ! فاسمع إلى تلك القصة : « لقد وقعت فى شرك حب جديد ! سيدة من غانيات باريس بحت لها فى نوبة جنون غرامى باسمى وسرى . ولقد كانت هى صديقة من صديقات مدام دى بارى ... وقد كانت هذه الملاقة سبباً فى ربط أسباني بأساب لويس الخامس عشر ...

وقصارى القول ... لقد أقيمت بالى كله إلى حبيبتي الجديدة التى أشارت على بشد الرحل إلى لندن لاستشارة طبيب من أطباء الميون المشهورين فيها ، فسافرنا من فورنا . وبعد عيشة راضية منمقة بالقبل ، مغسولة بدموع الحب ، هجرتنى حبيبتي فجأة فى الهامبارك ... أواه يا صديق ! لقد هجرتنى

المنسى المترج بذكريات بيكانكا ! ولكن سرعان
ما علا ميزان الذهب ، وشال ميزان الحب ...
ونكس ميزان الشباب !

وقال في صوت متهدج : « إني أرى الذهب
دائماً ، في منامي وفي يقظتي ... وإن روحي لا تني
تسبح في عالم متلائي* بأضواء النضار والجواهر
والماس الثمين ... إني لست أعمى كما عساك تظن ،
فالذهب واللؤلؤ بضئىء لى حلك ليلي الدائم ... ليل
فاسينو كين القديم الشاب ، لا أما ... فقد تقاص
عنى لقبي إلى متى ! آه ياربى ! لقد حل عقابك
بالقاتل فلم تغلته ... بوركت يا قدوس ! ...

ثم ذهب يردد صلوات كثيرة لم أعن بالثبث
منها ... فلما هب واقفاً قلت له : « هل سندهب
إلى البندقية ؟ إني مستعد ! » فهلل وجه الرجل
وصاح : « إذن لقد اقيمت رجلاً بعد طول اليأس ! »
ومددت له ذراعى فلف ذراعه عليه ، وذهبت معه
ملجأ العميان . وقد لقينا فى الشارع جماعات
المدعويين يصيحون ويصخبون فى طريقهم إلى منازلهم
وقال لى وهو يضغط على يدي : « هل نبداً
رحلتنا من غد ؟ » فقلت له : « بمجرد أن يتيسر
لنا مبلغ من النقود ! » فقال : « بل نطلق على
أقدامنا ! إني سأشجذ ! إني مازلت قوياً . وأنت ،
إنك مازال شاباً موفور الشباب ، وستدفع القوة
فى كيالك حينما تنظر إلى قناطير الذهب تحطف عينيك

وتوفى فاسينوكين قبل أن ينتهى الشتاء بمد
شهرين طويلين قضاها فى مرض عضال ..
لقد أصابه برد شديد لم يمهله ... مسكين !

دسبني خضبة
(٤)

الكثر إلى القنصل الأول^(١) ، ثم إلى امبراطور النمسا
فسخرأمنى ، وكتبنا إلى السلطات بضرورة مراقبتى
أو زجى فى بيارستان ... فهلم أنت ... هلم بنا إلى
البندقية ... لنذهب إليها فى زى شحاذين ، لنمود
منها من أصحاب الملايين ... إني أستطيع بذلك أن
أرد أملاكى ، وستصبح أنت وارثى ... إنك ستكون
أمير قاريلى ! !

وسكت الرجل ، ودارت بى الدنيا ...
ونظرت إليه ، ثم إلى الدين ، ثم إلى التربة ،
نخيل لى أننى أنظر إلى قنوات البندقية ؛ ثم رددت
فى وجهه المفضن عني ، نخيل لى أننى أنظر إلى
جدران الباستيل ، غائصة فى مياه البندقية كذلك
وتلبثت برهة لا أنبس ، ودار بخلدى أن الرجل
قد أخذ يستريب بى ، وبظن أننى أرثى له كمجنون
كما رثى له الآخرون ، فبدأ وجهه يتقلص ، ويمتلئ
بالأساير ، ويعبر عما يشيع فيه من فلسفات اليأس ،
وخلجات القنوط

ومن يدرى ؟ فلرعاها جت هذه القصة ذكريات
البندقية فى قلب الرجل ، فطفق يبكي شبا به وينمى
حبه ... آية ذلك أنه أدنى نايه من شفثيه ، وأخذ
يلعب لحناً مؤلماً ، حنوناً ، لم تقع فيه لحنة
أونشوز ... ولاغرو ... فقد كان لحن حبه الصائع ،
وشبا به المولى

ثم امتلأت عيناه العمياوان بالدموع .. وسرت
الموسيقى فى هواء السين تجلجل وتتكرمع أمواج
النهر .. فلو أن عابراً سهماً تحجر قلبه ، لو وقف ينصت إلى
موسيقى الذكريات .. موسيقى لحب المنى .. الذى يرسل
من ضمراه آخر صرخة من صرخات الألم وراء اسمه

(١) نابليون قبل أن يكون إمبراطوراً